الفصل الثاني

جزيرة العرب في العهد العثماني

obeikandl.com

تاريخها السياسى

١ — خلاصة التطورات السياسية العامة :

دانت جزيرة العرب للأمويين ، بعد أن تمت الغلبة لهم على الهاشميين ، ثم خضعت للعباسيين ، وفى سنة ٢٥١ هـ ظهر فى الحجاز بنو الأخيضر . فملكوها ، وبقيت تحت سيطرتهم إلى أن تغلب عليهم القرامطة سنة ٣١٧هـ ، ثم صارت للهواشم : وأولهم أبو هاشم محمد العلوى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ واستقرت فى بنى قتادة ، وهم فرع منهم ، سنة ٥٩٨ هـ حتى العهد السعودى الأخير .

هذا ، ولما سقطت بغداد فى قبضة المغول ، وانتقلت منها الخلافة العباسية إلى القاهرة ، انتقلت معها إلى مصر تلك السيادة التى كانت لدار السلام على البلاد الحجازية وغيرها ، ثم أتيح للسلطان صلاح الدين الأيوبى أن يضم اليمن إلى مملكته ، وتمتع الأيوبيون من ثم بالسيادة على الجزيرة كافة . غير أن اليمن لم تثبت إلا قليلا حتى ثارت على المماليك الذين خلفوا الأيوبيين ، واستعادت استقلالها ، كما أن عدوا جديدا ظهر فى ذلك الحين ، فتغلب على بعض سواحل جزيرة العرب ، وأرهق بالظلم أهلها ؛ وأعنى به حكومة البرتغال ، وأفضى وجوده إلى تقلص ظل المماليك تدريجيا عن سواحل الجزيرة .

كان نجاح فاسقو دوجاما فى كشف رأس الرجاء الصالح قد نشطه للتقدم إلى الأمام فى المحيط الهندى ، قصد كشف الطريق المؤدية إلى الهند الشرقية . وعند مابلغ هذا البحار المغامر أمنيته سنة ١٤٩٨ م بدلالة أحد الملاحين العرب أحمد بن ماجدة ، اغتبطت البرتغال بهذا الفتح الاقتصادى

وأمدت هذا البحار بالقوى الكافية للقضاء على كل عقبة تحول دون تقدم هذا الكشف .

وكان كل من المماليك بمصر ودولة البندقية قد قدر سريعا ما لهذا الكشف من المضار عليهم فى الناحية الاقتصادية ، فجمعتهم المصلحة ، للتعاون على خلق المصاعب فى وجه البرتغال ، وقد رافقهم الحظ مدة قليلة ، ولكن ما إن عهدت البرتغال إلى البوقرق برياسة الحملة الشرقية حتى أفل نجمهم . فقد انقض هذا على عمارة المماليك فى البحر الهندى، فمزقها شر ممزق .

ولما خلا له البحر اتخذ جزيرة سقطرى مقرا للتحكم بمجاز باب المندب وملاحة البحر الأحمر ، هذا فضلا عن استيلائه على بعض الثغور الحصينة فى اليمن وحضرموت ، واحتلاله كلا من مدينة مسقط فى عمان وجزيرة هرمز . وقد أقام عدة قلاع على مقربة من الحسا وعلى الساحل الشرقى لخليج فارس ، فأتيح بذلك للبرتغال القبض على ناصية التجارة المتداولة بين فارس والهند وجزيرة العرب من جهة ، وبينها وبين أوربة من جهة أخرى.

هذا ، وكان وقع نجاح البرتغال فى جزيرة العرب قاسيا جدا على دولة المماليك ، وذلك من جراء تحول طرق التجارة عن البحر المتوسط ، وحرمانها موارد كانت مادة ازدهارها ، فبادر قانصوه الغورى لتجهيز حملة عظيمة سارت إلى اليمن سنة ١٥١٧ م قصد استرجاع الثغور من البرتغال، ولكن عزيز مصر فوجئ باكتساح السلطان سليم العثمانى لبلاده ، فطارت مع أحلامه روحه ودولته .

ب — الحجاز فى حكم آل عثمان :

يبدو أن آل عثمان قد أصابهم الحسد من المماليك من جراء قيام الخلافة بمصر بعد سقوط بغداد ، ولعلهم طمعوا فيها أسوة بتيمورلنك .

وآية ذلك أنهم ما إن نشئوا نشأتهم الثانية بعد الكارثة التيمورلنكية ، حتى انصرفوا لاستمالة العرب ، فكان السلطان محمد الأول ، وهو مؤسس أركان الدولة فى نشأتها الثانية ، أول عثمانى وجه « الصرة » لأمير مكة ، وهى المال المعد للتوزيع على فقراء الحرمين ؛ واستمرت هذه العادة جارية زمن خلفائه، إلى آخر أيامهم . ولما ولى السلطان بايزيد الثانى (٨٨٦ هـ = ١٤٨١ م) أوفد الأمير زيزما إلى الحجاز لتوثيق عرا الصداقة بينه وبين أسرة قتادة الحاكمة ، وزوده العطايا والمال لإصلاح سبل القوافل ، وتأمين الأمن والماء فى ذلك القطر ، ولا شك أن تلك السياسة تركت كبير الأثر بين المسلمين والعرب ، وكان من تأثيرها أن انضم عرب الشام ومصر إلى صفوف ابنه باوز سليم ، حينما جاء لمحاربة دولة المماليك التى كانت تحكمهم ؛ كما أن شريف مكة حجب مساعدته وقتئذ عن هؤلاء المماليك ، وسارع لإيفاد بعثة إلى القاهرة ، حملها مع التهنئة للسلطان المنتصر مفتاح الكعبة . وقد قابل السلطان هذا العطف بالإغداق على مشايخ العرب ، وبترتيب نفقة دائمة لفقراء الحجاز ، مستبقيا عادة محمل الحج المصرى التى ابتدعها المماليك من قبله . هذا ، وكان السلطان سليم مشغوفا بالألقاب ، فقد عرف بباوز سليم « أى القاطع » عقب انتصاراته الأولى ، ثم أطلق عليه لقب شاه، من جراء انتصاره على الفرس ، وكأنه أراد أن يتمتع بلقب أعظم مرتبة من ألقابه هذه ، فاشرأبت نفسه لأن يكون خليفة أيضا . فما إن بسط سليم سلطته على العرب، حتى أمر الخليفة أن ينزل عن الإمامة ، وحينما تسلم منه العلم النبوى عمل على نقل آثار النبى والصحابة من مكة للآستانة ، ورسم أن يخطب باسمه فى الحجاز وتهامة . وإذا به يلقب بخادم الحرمين الشريفين وخليفة المسلمين .

على أن الحكم فى الحجاز استمر كالسابق فى حوزة بنى قتادة أشراف مكة ، ومنهم انتقلت الإمارة إلى بنى بركات ، وبقيت فيهم حتى القرن

الثامن عشر حيث غلبهم عليها بنو أبي نمي ، وحافظ هؤلاء عليها حتى خرج الحجاز جميعه من يد الهواشم سنة ١٩٢٤ م . هذا وكان أشهر بني أبي نمي هم : الشريف مدور ، فالشريف غالب ، فالشريف حسين بن علي ، وهو آخرهم. على أن تركية مع تسليمها بسلطة الشريف على الحجاز ، كانت تنصب إلى جانبه هيئة حكومة كاملة ، يرأسها الوالي وقائد الجند وكبير القضاة ، وترتبط مواردها بخزانة الدولة العامة ؛ ولما كانت هذه الموارد غير كافية لسد عجز ميزان هذه الولاية ، ولتغطية مرتبات الأشراف والفقراء ، كانت السلطنة ترصد مبلغا من المال كل عام تعده لمساعدة الحجاز ، كما أن حكومتي مصر وتونس كانتا تسهمان معها في تخصيص مثل هذا الجعل السنوي للبلاد الحجازية .

هذا ، وفي سنة (١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م) نصب الباب العالي الشريف حسين ابن علي أميرا على مكة . وبه كان آخر عهد العثمانيين في الحجاز ، إذ خرج عليهم هذا الشريف ، ومشى إلى جانب الحلفاء خلال الحرب العامة الأولى ، طمعا في استقلال الحجاز والعرب ، وهو في ذلك يستند إلى اتفاق عقد بينه وبين إنكلترة ، كان مصيره مصير كل اتفاق يعقد بين القوي والضعيف .

حـ — اليمن في حكم آل عثمان :

نشأت السلطنة العثمانية إبان قيام الدولة الرسولية باليمن (١٢٢٩ = ١٤٥٤ م) وترعرعت خلال الدولة الطاهرية (١٤٤٦ — ١٥١٧ م) ، وبلغت ذروة مجدها أيام السلطان سليمان القانوني ، الذي أصبح محطا لآمال العالم الإسلامي . وقد جاءه وفدان من الهند يستجيران به من طمع البرتغال وجورها ، فأعد عمارة برحت السويس سنة ١٥٣٨ م متجهة إلى عدن ؛ فبلغتها في بضعة أشهر ، واستولت عليها ، ثم تحولت إلى غزو المعاقل التي استولى عليها البرتغاليون في خليج فارس ، وانتهى بها المطاف إلى بلوغ سواحل

الجوزرات فى الهند . ولما قفلت راجعة رست أمام المخا فى تهامة اليمن ، فاستسلمت لها مدينة زبيد ، وأبقت فيها حامية .

وكان النضال فى أثناء ذلك متصلا بين آل عثمان والفرس ، وصبغته السياسة بلون طائفى ، الإسلام برىء منه . وقد عز على الفرس نجاح العثمانيين فى اليمن ، فهبوا إلى مقاومتهم بالدعايات بين كثرة أهليه الزيود ، فكان ذلك بالإضافة إلى حرص اليمن على الاستقلال ، مدعاة لاتصال الحرب بين العثمانيين واليمنيين طوال أعوام ١٥٣٩م إلى ١٥٦٨ . على أن الباب العالى وإن استطاع أخيرا أن يتغلب على قواعد اليمن : كصنعاء ، وعدن ، والمخا ، وتعز ، وزبيد ، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يحتفظ بها طويلا ، خصوصا بعد أن استتب الأمر لدولة أئمة صنعاء منذ سنة ألف للهجرة (١٥٩١ م) . فانتهى به الأمر إلى التخلى عنها ، والاعتراف بخلافة الإمام مطهر الزيدى ؛ ولكن لم يأت على ذلك إلا قليل من الزمن ، حتى سنحت الفرصة للسلطنة لأن تستعيد اليمن إلى حظيرتها ، وتجبر إمامها المشار إليه على عقد صلح يعترف فيه بسيادتها ، مكتفيا بالإمارة على كوكبان التى بقيت وحدها فى حوزته .

وفى أوائل القرن السابع عشر خرج على العثمانيين السيد قاسم أحد أقرباء الإمام مطهر ، وأعلن استقلاله ، ونودى به أميرا للمؤمنين ، وسك النقود باسمه ، وقد حاول السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠ م) إخضاعه ، فحمل عليه برا وبحرا ، ولكن حملاته هذه ذهبت أدراج الرياح .

غير أنه قد تولى الحكم فى اليمن بعد الأئمة الأوائل المعروفين بالعقل والبسالة ، خلف كانوا ضعاف النفوس ، قساة القلوب ، أضاعوا سلطتهم ، وفسحوا المجال لقيام الثورات وانقسام البلاد ، حتى إن مدينة صنعاء نفسها ، انقسمت أيضا إلى شيع وأحزاب أخذ يقاتل بعضها بعضا ، وتستنجد القبائل الذين كانوا يعيشون فى الأرض فسادا .

وكانت تركية التى تتحين الفرص للانقضاض على اليمن تجد فى هذه الفوضى مجالا لتحقيق الأمل . فقامت خلال ذلك بجملة محاولات قصد الاستيلاء على تلك البلاد ، فكانت تفتحها مرات ثم تضيعها ، وذلك بين سنى (١٧٨٠ و ١٨٧٠ م) . حتى إذا كان عام ١٨٧١ نزلت حملة تركية جديدة فى تهامة ، وسارت نحو القاعدة ، فقابلها وفد من أعيان البلاد ، وأعلن استسلام صنعاء وكافة بلاد الهضبة اليمنية .

أما الأسرة الحاكمة الزيدية فقد انسحبت إلى الأقاليم الشمالية ، حيث احتفظت بمظهر بسيط من مظاهر السلطة الروحية . وبذلك استقر الحكم التركى فى اليمن كرة أخرى .

وقد جرت عادة السادة الزيود ، حتى إبان الحكم التركى ، أن ينتخبوا الأمراء ، ويثابروا على تلقيب كل منهم « أمير المؤمنين » و «المتوكل على الله» . وفى سنة ١٨٩٠ انتخبوا فى مدينة صعدة على تخوم العسير إمامهم الجديد محمد حميد الدين ، وأصبح ابنه الأكبر يحيى يتمتع بلقب سيف الإسلام . وكانت هذه البيعة نقطة انطلاق جديد ، لتحرير اليمن من النير الأجنبى . وذلك أن الإمام الجديد جمع بعض الفرق العسكرية ، واخترق بهم الجبهات التركية فى حجة وعمران ، وسار حتى حاصر صنعاء . وكانت فرصة للشاب الأمير يحيى ، لإظهار مواهبه العظيمة وبسالته ، حتى إنه عند ما توفى والده فى عام ١٦٠٤ اتجهت أنظار قومه إليه ، وكانت باكورة أعماله إعلانه الحرب على الأتراك ، وثابر على الزحف حتى بلغ أسوار صنعاء ، ودخلها دخول الفاتحين .

ولكن الإمام يحيى اضطر مرتين لإخلائها على أثر وصول النجدات التركية ، وانتهى به الأمر إلى الانسحاب إلى « قفلة عذر » ، وهو المكان الذى كان والده الإمام محمد حميد الدين اختاره من قبل مستقرا له ، عقب انتصار الجيوش التركية .

غير أن هذه الهزيمة التى منى بها الإمام يحي لم تفت فى عضده ، بل ظل يكافح الغزاة بصبر وعناد، ويوقع بهم خسائر فادحة ، حتى لقبت اليمن فى تلك الحقبة بمقبرة الترك ، والحق أنها كانت مقبرة العرب ، لأن الحملات التى كان يسوقها السلاطين لتأديب اليمن، على حد تعبيرهم، كانت تصدر فى بداية الأمر عن مصر ، ثم صارت تعبأ من الولايات العربية القريبة ، بعد انفكاك مصر عن الآستانة . ولطالما كنا نرى الأجناد الذين يعودون سالمين من اليمن على حال تثير الشفقة ، فنتساءل أكانوا لايزالون أحياء أم أمواتا .

هذا، وقد حاول حزب الاتحاد والترقى الذى تفرد بالسلطة بعد خلع السلطان عبد الحميد ، أن يضرب الإمام ضربة قاضية ، كما حاولوا أن يقيموا إماما زيديا آخر بدلا منه ، ولكنهم أخفقوا ، وما كان ذلك من جراء ثبات جلالته فحسب ، بل لأن قيام إيطاليا ودول البلقان على تركية حملهما على التراجع عن اليمن، واضطرهم لتوقيع اتفاق سنة ١٩١٢ الذى انحصر بمقتضاه نفوذ السلطنة فى مدينة صنعاء ومعظم تهامة فى الساحل .

وأما الأقاليم الزيدية ، فقد خضعت من ثم فى الناحيتين الإدارية والدينية للإمام يحي ، الذى أقام الأحكام على الشريعة الإسلامية ، متخذا مدينة خمر فى شمالى صنعاء مقرا لحكومته .

وقد نشبت الحرب العامة الأولى بعد نحو سنتين من ذلك ، ومشى شريف مكة فى صفوف الحلفاء ضد السلطنة . أما إمام اليمن فقد رفض بشمم وإباء كل محالفة اقترحها عليه الإنكليز، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها دخل صنعاء دون مقاومة ، وكان ذلك وفقا لمعاهدة موندروس التى عقدها الترك مع الحلفاء سنة ١٩١٨ وقضت عليهم بالجلاء عن جميع الأقطار العربية.

ولما تلتها معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ ، التى وقعها كل من الترك والحلفاء ، كان على الباب العالى أن يعترف بمقتضاها باستقلال اليمن ، فكان استقلالا ناجز .

على أن بريطانيا العظمى استطاعت وحدها أن تبقى جاثمة فى جنوب اليمن . فهى قد احتلت ثغر عدن منذ سنة ١٨٣٩ ، وأدخلته من بعد فى نطاق المستعمرات الإنكليزية، واتخذته قاعدة استراتيجية لبسط حمايتها على المحميات ، بمقتضى معاهدة ربطت بها عواهل تلك السلطات والإمارات .

و — حكومة عسير :

وقامت حكومة أخرى فى أرض اليمن فى مستهل القرن الحاضر ، وهى حكومة الإدريسى بعسير ، وتنسب إلى السيد أحمد الإدريسى المغربى . جاور هذا الرجل فى مكة سنة ١٧٩٩ ، وأقام فيها مرشدا إلى طريقته . ثم هاجر إلى عسير ، وصاهر الأسرة السنوسية ، فاشتهر فيها ، وانتشر نفوذه حولها ، وأراد حفيده السيد محمد على ، خريج الأزهر وتلميذ الكفرة مقر السنوسى ـ استغلال هذا النفوذ، فكان له ما أراد، حتى استطاع أن يطرد الترك من متصرفية عسير سنة ١٩١٠ م ، وحاصر بها قاعدتها ، فما وسع تركية وقتئذ إلا أن تتجه نحو الشريف حسين بن على أمير مكة وكان لا يزال مواليا لها ، فعمل هو بنفسه على الإدريسى ، وأجلاه عن عسير . ولكن الفرص لم تلبث أن سنحت للإدريسى بعد قليل إبان الحرب التى وقعت بين الترك وإيطاليا سنة ١٩١١ ، لأن يعود إليها ، متفقا مع حليفته حكومة روما ، ثم اكتسب أيضا فرصة الحرب التى نشبت بين السلطنة ودول البلقان، واستعاد عسير ، وأقام فيها حكومة مستقلة . ولكن هذه الحكومة لم يقدر لها العمر الطويل ، بل سرعان ما انقسمت عسير بين دولتى اليمن والعربية السعودية ، إلى أن تفرّد فيها آل سعود .

هـ — آل الرشيد فى حكم آل عثمان :

يتصل نسب آل الرشيد بقبيلة شمر ، وقد عرفوا بحسن العلاقات التى كانت تربطهم بالباب العالى ، فحينما أتيح لمدحت باشا والى بغداد

ان يعيد سلطة الدولة على بلاد نجد ، كافأته الدولة بالولاية على إمارة حايل ، الواقعة فى القسم الشمالى منها ، ثم وجد محمد بن الرشيد فى الخصام الدموى الذى نشب بين الأخوين عبد الله وعبد الرحمن آل سعود ، مجالا للتدخل فى شئون الرياض ، لضمها إلى إمارته . وقد أراد هذا الأمير أن يظهر بمظهر السماحة والاعتماد على النفس ، بمعاملة الأميرين عبد الله وعبد الرحمن آل سعود ، فأذن لهما بالرجوع إلى الرياض ، والسكنى فيها إلى جانب عامله . وقد توفى عبد الله عقب العودة إلى بلده . وأما عبد الرحمن وهو والد جلالة الملك عبد العزيز ، فلم يطق صبرا على رؤية أولئك الذين كانوا بالأمس تابعين لأسرته يتحكمون اليوم فى إمارتهم ، فانقض على ابن الرشيد وقاتله ، ثم اصطلحا على أن يتولى عبدالرحمن إمارة الرياض مستقلا ، ولكن عبدالرحمن أعاد الكرة على آل الرشيد ، بالاتفاق مع أمراء القصيم ، ولما لم ينل مأربا منهم اضطر للهجرة إلى الأحساء سنة ١٨٩١ م فالكويت ، واستقر فيها .

وخلا الجو منذ ذلك الوقت للأمير محمد بن الرشيد ، وأصبح زعيم نجد المطلق ، معززا بعطف تركية . وكأن نفسه الطموح راودته أن يكتسح الكويت ، فيدرك منفذا على البحر ، أو لعل تركية حملته على أن يفكر فى هذا الأمر حينما استشعرت الخطر الأجنبى يحيق بذلك القطر . ولكن إنكلترا سبقته إلى الكويت ، وأعلنت عليها حمايتها ، وجعلتها مركزا استراتيجيا لها فى شرق الجزيرة . ومنذ ذلك الحين أصبح النزاع بين آل الرشيد وآل سعود لا يتعدى كونه ستارا يخفى وراءه نضالا آخر ، قائما بين سياسة كل من إنكلترة وتركية . فكان من الطبيعى أن تكون الغلبة للندن على الآستانة .

وقد أخذ شأن آل الرشيد ينحط من جراء الخلافات الداخلية ، وخصوصا بعد زعيمهم عبد العزيز بن متعب الذى قتل سنة ١٣٢٤ هـ . أما ابن سعود فإنه اهتبل هذه الفرصة ، وخرج على الترك فى نجد سنة ١٩٠٦ م ، وأجلاهم عنها .

ثم كانت الحرب الكبرى الأولى ميدان عراك مكشوف بين الإنكليز والعثمانيين فى سائر جزيرة العرب ، وانتهت الحرب بفوز الحلفاء ، وبالقضاء على كل نفوذ للترك فى تلك البلاد . أما إمارة آل الرشيد فقد أخذت بعد آل عثمان تحاول الاتفاق مع كل من شريف مكة وحاكم الكويت على آل سعود ، فإذا بابن سعود ينقض عليهم انقضاض النسر ، ويطوى صحيفتهم سنة ١٩٢١ . وهاهم أولاء يعيشون فى كنف جلالته طلقاء مكرمين ، كما كان والده وعمه من قبل أعزاء فى رحاب آل الرشيد ، وكما تدين تدان .

و — آل سعود فى حكم آل عثمان :

الوهابية وإمارة السعوديين الأولى :

أصاب تركية أواخر القرن السابع عشر ، فى أثناء حروبها مع روسيا وفارس خذلان إثر خذلان ، خدم العرب وغيرهم فى جهادهم القومى . ثم تعاقب على عرش السلطنة منذ مفتتح القرن التالى خمسة عواهل كانوا غير أكفاء . فاهتز البعث القومى خلال حكمهم وربا ، وانفسح المجال فى جملة ذلك إلى حركة كانت قومية فى العاطفة ، ودينية فى الغاية ، حدثت فى نجد ، وكادت تجمع شتات جزيرة العرب وتحررها ، وتنهض بها نهضة الإسلام الأولى ، وأعنى بها الوهابية .

واضع هذا المذهب رجل تميمى ، اسمه محمد بن عبد الوهاب ، طلب العلم فى بغداد والبصرة ، ولما عاد إلى نجد فى منتصف القرن الثامن عشر ، كبر عليه أن يرى وطنه وسائر الجزيرة يهيمان فى جهالة لاحد لها ، فود النهوض بها ، فدعا إلى الاعتماد على القرآن ، وإلى شريعة بيضاء نقية ، كما تركها محمد ، ونهى عن الغلو فى تقديس الأنبياء والأولياء . وكان خلال ذلك ينكر على الترك تحكمهم ، ويؤاخذهم على الأخلاق التى تعتبر فى الشرع فسادا ، وربما كان يصورهم زنادقة ، إثارة لقومه إلى الجهاد .

وكانت قبائل نجد وغيرها لا تعرف من الدين إلا أنها مسلمة ، فأقبلت على دعوته ، واستمسكت بالآداب التى يبشر بها . وكان زعيم مريديه محمد ابن سعود يجمع بين الشجاعة والحكمة ، فعقد له عبد الوهاب راية القيادة ، وزوجه من ابنته ، فاستطاع بعقله الكبير أن يؤلف بين القبائل ، وأن يوجهها إلى أطراف الجزيرة ، لتنشر الوهابية . وكان الأمراء البارزون فى جزيرة العرب وقتئذ هم أشراف الحجاز ، وبنو خالد فى الأحساء ، وآل خليفة فى البحرين ، وآل معمر فى العيينة ، وآل السعدون فى العراق ، والإمام المتوكلى فى صنعاء ، والسادة فى نجران ، وسلطان بهمان . فأعلنت نجد عليهم حروبا دامية ، كان هدفها الإصلاح على أساس المذهب الوهابى .

توفى محمد بن سعود (١١٩٧ هـ = ١٧٦٦ م) ، وخلفه ولده البكر عبد العزيز ، وفتح الأحساء ، وقضى على إمارة بنى خالد ، وهادن شريف مكة ، وبسط حمايته على آل خليفة فى البحرين . ثم أتيح لخليفته وابنه سعود (١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م — ١٢٩٩ هـ = ١٨١٤ م) ما لم يتح لغيره منهم ، فدخلت فى طاعته مكة والمدينة والطائف وجدة حتى حران ما بين مكة ودمشق . هذا ، فضلا عن استيلائه على عسير وقسم من اليمن ، بالإضافة إلى الأحساء والبصرة والبحرين وتهامة . أما الدولة العثمانية فقد هالها الأمر ، وحسبت للخطر ألف حساب ، فوالت إصدار الأوامر إلى حكام البصرة وبغداد وجدة ومصر والشام ، تحضهم على إرسال الحملات لوقف تيار الوهابيين ، ووجه السلطان محمود الأول ومصطفى الثالث الهدايا الفاخرة إلى شريف مكة

هذا ، وكان نابليون بونابرت قد فسح المجال لهذا النجاح الذى أصابه الوهابيون : فهو بحملته على مصر صرف تركية عن جزيرة العرب برهة ، كما أنه شغلها عن كل شىء آخر ، كما شغل سائر الدول حينما صار أمبراطورا ، وفضلا عن ذلك فقد أوفد فى تلك الأثناء المسيو لسقاريس إلى بلاد العرب ، قصد الاتفاق مع القبائل ، ليؤمن لجيشه عبور الطريق التى

سلكها الإسكندر إلى الهند وكان على هذا الرسول أن يؤيد القبائل المخاصمة لتركية لأن تركية كانت حليفة لإنكلترة، وأن يزود هذه القبائل المال والعتاد. روى المؤرخ الفرنسي سديو Lexdeillot في تاريخه عن العرب، قال: «إن لسقاريس هذا كان على اتصال بالأمير سعود زعيم الوهابيين.

ز — استعادة تركية جزيرة العرب واضمحلال السعوديين:

ثبت الباب العالي محمد علي باشا على مصر، بعد قضائه على المماليك، وأضاف إليه ولاية الحجاز، فكان عليه أن ينقذ هذه الولاية من الوهابيين. فتمكن ابنه طوسون باشا بعد حرب سجال وقعت بينه وبينهم مدة عام، من استرداد مكة والمدينة وجدة والطائف. ولكن آل سعود عادوا فجمعوا جموعهم، وكروا على الحجاز بقوة، ومن وراءهم اليمن تعززهم، فبلغوا الطائف وحاصروها، وتوفي الأمير سعود بن عبد العزيز وهم على حصار الطائف، ولم يكن بين أولاده من يخلفه في الجدارة والإقدام، فتسنى لمحمد علي باشا الذي تولى القيادة بنفسه أن يجليهم عن الحجاز ويفوز عليهم فوزا مبينا سنة ١٨١٥م. كما أتيح لولده إبراهيم باشا الذي أخذ يطاردهم أن يدخل في العام التالي قاعدتهم الدرعيـــة؛ وحينئذ لم يسع شيخهم عبد الله بن سعود إلا الاستسلام، فنقل مخفورا إلى إستامبول، وقتل فيها.

ح — الإمارة السعودية الثانية:

لقد كان قتل عبد الله بن سعود حافزا لنشاط قومه على الاستبسال في النضال، فاستطاع تركي بن عبد الله في أثناء الفوضى التي عادت إلى نجد استرداد الرياض. ولما صارت الإمارة لابنه فيصل كاد يمثل دور أجداده، ويتبسط في الجزيرة، ولكن الخلاف الذي وقع بين السعوديين أنفسهم كان مساعدا للحملات التي تتابعت على خضد شوكته، وسوقه مأسورا إلى مصر.

وكان خالد بن سعود يرافق الحملة الأولى التى ساقتها مصر على السعوديين، فكافأته الدولة على ذلك بنصبه حاكما على نجد ، ولكنه ما كان لينجح فى مهمته وهو يمثل الحكم الأجنبى ، إذ أن أهل نجد كانوا حريصين على استقلالهم ، لذلك أقبلوا على خصمه عبد الله بن ثنيان يعاضدونه .

وخلال ذلك تسنى لفيصل بن تركى أسير مصر الهرب منها، فأسلم له سائر الرؤساء قيادهم ، واتحدوا تحت رايته ، فاستردوا ما كان قد فتحه أجداده فى جزيرة العرب ، ماعدا الحجاز .

ويظن حافظ بك وهبة وزير الملك ابن سعود بلندن « أن قرار فيصل المشار إليه كان بعلم عباس باشا الأول حاكم مصر » . أما نجاحه فلعله يعود إلى انسحاب الجيوش المصرية من جزيرة العرب ، عملا بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠م . ومهما يكن السبب، فالواقع أن ذلك النجاح كان قصير الأمد ، من جراء الخصام الذى استفحل أمره بعد وفاته بين ولديه عبد الله وسعود ، ففسح المجال لمدحت باشا والى بغداد ، للقضاء على إمارة السعوديين مرة أخرى ، مستعينا عليهم بآل الرشيد .

ط — الإمارات السعودية الثالثة :

كان الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن « جلالة الملك الحالى » ينزل مع والده فى رحاب الشيخ مبارك أمير الكويت ، مذ قضى مدحت باشا على إمارتهم . أما نجد والرياض بلاده فقد كانت تطأطئ الرأس لآل الرشيد ، كافأتهم بها الدولة العثمانية على مساعدتهم لها على آل سعود . فكان الألم يحز فى قلب هذا الشاب ، إذ يرى نفسه مهاجرا وهو على قيد أميال من وطنه العزيز . وفى مطلع القرن العشرين وطد عبد العزيز العزم على العمل ، فإما الفوز والعز ، وإما الموت دون ندامة . وفى الواقع كان عمله شديد الخطر ، ولا يقدر نجاحه إلا بنسبة واحد فى المئة .

دخل عبد العزيز الرياض ليلا ، على رأس كتيبة قليلة العدد ، وبات فيها مستخفيا، حتى إذا تنفس الصبح ، وبكر عامل ابن الرشيد باستعراض خيله، عاجله بالقتل ، وأعلن حكم آل سعود فى قاعدة إمارتهم ، ثم قضى مايزيد على عشرين سنة يناضل الخصوم : من نجديين، وهاشميين، وترك، وهو يقابل القوة بالقوة حينا ، ويستعمل اللين حينما يراه أجدى ، حتى مكنته جدارته من ناصية نجد .

وكان العثمانيون خلال ذلك يناصرون ابن الرشيد على ابن سعود ، فكانت الحرب سجالا بين الإمارتين، إلى أن انتهى الأمر، وباء الترك بالخيبة ، وانسحبوا من نجد سنة (١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م) فنسنى لابن سعود أن يضم القصيم إليه، ذلك الإقليم المشهور بسهله الواسع الخصيب ، ثم رأى ابن سعود أن الفرصة سانحة عند خروج تركية منهوكة القوى من حربى إيطاليا والبلقان (١٩١١ — ١٩١٣ م)، فانقض على إقليم الأحساء مقام المتصرفية، واستولى عليه، فأصبح من ثم على اتصال سياسى وثيق مع بريطانيا العظمى . ولما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م لزم الحياد فى بادئ الأمر ، ولكن الدونتج ستريت « مقر الوزارة البريطانية » ظل يستميله ، حتى وقع معاهدة القطيف سنة ١٩١٥ م . وكانت كسائر المعاهدات التى عقدها أمراء خليج فارس، تقضى بارتباط سياسته الخارجية بسياسة بريطانيا العظمى، وبالحرى للدخول فى حمايتها . ولكن هذا البطل لم يستسلم طويلا للأمر الواقع، وإذا به ينقذ الموقف بمعاهدة جدة سنة ١٩٢٧م، تلك المعاهدة التى اعترف فيها بالاستقلال التام للدولة العربية السعودية .

ى — سواحل الجزيرة فى حكم آل عثمان :

كانت البرتغال باستيلائها على بعض الجزائر مما يلى السواحل العربية قد جعلت البحر الأحمر وخليج فارس والمحيط الهندى منطقة نفوذ لها

ولما أتيح لتركية التغلب على بلاد العرب ، عقدت العزم على الرجوع إلى السياسة السلبية التى كان مماليك مصر اتخذوها ضد البرتغال ، وباشرت ذلك بالحملة التى أرسلها السلطان سليمان القانونى للجوزرات الهندية ، فجدة لحاكمها البرتغالى سنة ١٥٣٨ ، فكانت من قبيل الكشف ، ثم رأت أن تتبع خطة فعالة حازمة لمواجهة الخطر الأوربى هناك ، فنصبت فى مرفأ السويس قبودان باشا ، وعهدت إليه منذ سنة ١٥٥١ مهام ما وراء البحر الأحمر . وفعلا تقدم أسطولها بإمرة برى باشا إلى خليج فارس ، وهدم مدينة مسقط التى كانت للبرتغال مركزا استراتيجيا تتحكم فيه بعمان ، وحاصر جزيرة هرمز ، فافتداها البرتغاليون بالمال الكثير . وهكذا أصبح خليج فارس من ثم ميدان نضال بين كل من العثمانيين والفرس من جهة ، وبين البرتغال من جهة ثانية . وكانت بريطانيا العظمى التى أخذت تبسط سلطتها على الهند قد أصبحت أشد حرصا من تركية وفارس ، على تحطيم نفوذ البرتغال فى الخليج الفارسى والبحر الهندى ، لذلك خفت شركة الهند الإنكليزية إلى الاشتراك مع الشاه عباس فى قتال البرتغال ، فتعاونا على طردهم من ثغر هرمز والبحرين سنة ١٦٢٢ م ، كما تولى العرب أنفسهم منذ ابتداء القرن السابع عشر مهمة إجلاء هذه الدولة اللاتينية عن سائر السواحل ، وقامت هناك إمارات عربية مستقلة ، بينها إمارة كانت تنتسب إلى أشراف مكة ، شمل حكمها كلا من هرمز والبحرين والحساء وكلوة وزنجبار .

هذا ، وقد قضى التنافس التجارى بين دول أوربة بأن تبرز للميدان دول جديدة ، فاستولى الهولنديون سنة ١٧٥٥ على جزيرة كرك ، ومد الفرنسيون والإنكليز أعناقهم إلى مسقط ، فردهم العرب واستعادوا كرك ، وقد دخلت هذه الجزيرة من بعد فى حوزة الفرس .

على أن فارس التى رضيت بمساعدة شركة الهند على البرتغال ، كانت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن إنكلترة لم تلبث أن استولت على جزيرة

كرك فى خليج فارس ، متظاهرة بأنها تريد القضاء على القرصنة وتأمين الاتجار هناك .

واتجهت بأنظارها إلى مسقط وعدن ، وانتهزت الفرص لنشر معتمديها فى منى باليمن والسويس وجدة والبحرين ، ثم احتلت عدن سنة ١٨٣٩ م ، واتخذتها قاعدة بحرية قائمة بين الهند وبين الجزر البريطانية ، وضمت إليها السلطنات السبع المحمية ، على حين واصلت من جهة أخرى مساعيها للتوسع ، حتى بسطت حمايتها على حكومات إمارات خليج فارس ، كما فصلنا ذلك فى كتابنا « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » .

وهكذا استطاعت بريطانيا العظمى أن تطوق جزيرة العرب ، وتتم سلطتها على أنقاض البرتغاليين ، هازمة الفرنسيين الذين خفوا لمنافستها منذ القرن السابع عشر ، ومخيبة آمال العثمانيين الذين حاولوا فى القرن التاسع عشر تمكين سيطرتهم على سواحل الجزيرة الشرقية ، وقد أصبحت الجزيرة منطقة نفوذ لها ، بفضل مستعمراتها ومحمياتها الآتى ذكرها :

المستعمرات :

١ — عدن .

٢ — باب المندب .

٣ — مشيخة قطر .

٤ — مشيخة دبى .

٥ — إمارة جزيرة البحر

المحميات العليا العوالق

١) محميات عدن ، وتشمل

ا — سلطنة لحج .

ب — مشيخة الضالع .

— سلطنة يافع العليا .

د — سلطنة يافع السفلى .
هـ — سلطنة الصبيحة .
و — سلطنة الفضلى .
ز — سلطنة العوالق .
ح — سلطنة الحواشب .
ط — سلطنة الواحدى .
ى — مشيخة القطيبى .
٢) سلطنة حضرموت القعيطية .
٣) سلطنة حضرموت الكثيرية .
٤) سلطنة مسقط وعمان .
٥) سلطنة جزيرة سقطرى وبلاد المهرة .
٦) إمارات ساحل الخليج الفارسى .
٧) إمارات الكويت .

تضاف إلى كل ذلك مملكة زنجبار، التى دخلت فى نطاق الحماية الإنكليزية منذ القرن الماضى . ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن إنقاذ بريطانيا العظمى لتركية من مخالب نابليون بونابرت ، وتحريرها بلاد الشام من الاحتلال المصرى ، كانا مساعدين لها على التبسط فى سواحل جزيرة العرب، من جراء النفوذ الذى صار لها عند الباب العالى .

هذا ، ولولا أن جلالة الإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن ظل على الحياد خلال الحرب العالمية الأولى ، ولم تؤثر فيه إغراءات لندن، لكان فى وسعنا القول أن جزيرة العرب كلها أمست وقتئذ منطقة نفوذ بريطانية ، خصوصا منذ أتيح لبريطانيا العظمى عقد معاهدة القطيف سنة ١٩١٥ مع جلالة الملك ابن سعود ، ومعاهدة الملك حسين (شريف مكة) سنة ١٩١٦ .

---

obeikandl.com